هوامش

كما غيّرت الحرب السورية حياة الكثير من السوريين وحولتهم إلى لاجئين، غيّر اللاجئون حياة المصور الصحافي الدنماركي مارتن تاولو، الذي ترك كل شيء لينقل معاناة هؤلاء بعيداً عن النمطية

مستمر في مناصرة قضايا اللاجئين (العربي الجديد)

مارتن تاولو

الدنماركي مصور اللاجئين السوريين

كوبنهاغن ـ **ناصر السهلي**

في معرض صور فوتوغرافية أُقيم في الهواء الطلق في العاصمة الدنماركية كوبنهاغن، حيث الأغنياء، أمسكت طفلة دنماركية اصطحبها أهلها معهم إلى المعرض صورة فتاة سورية لاجئة، وقد بدا المشهد مؤثراً بعض الشيء. ويبدو أن المصور الصحافي مارتن تاولو أراد ذلك، هو الذي عرض صوراً لأشخاص من ضحايا الحرب والتعذيب في سورية، ضمن مقاربة «قائمة على الاحترام والإنسانية»، رافضاً التعامل مع أبطال صوره وغيرهم من اللاجئين كأرقام، كما يقول لـ «العربي الجديد».

مُدّد معرض مارتن، الذي نُظّم بالتعاون مع وزارة الخارجية والمجلس الدنماركي للاجئين، شهراً إضافياً، أي حتى ديسمبر/ كانون الأول الجاري. ويمكن للزوار المهتمين الاطلاع على صور، هي عبارة عن بورتريهات، للاجئين سوريين في لبنان والأردن وتركيا. يقول إنّ اختيار كوبنهاغن لإقامة المعرض لم يكن صدفة، إذ يقصد الأثرياء المكان حيث أقيم المعرض، وقد أراد أن يحدث صدمة، حين يلتقي هؤلاء بأشخاص مهمشين ذاقوا ويلات الحرب وتعرضوا للتعذيب. هو ابن عائلة غنية تعيش في منطقة فيلوم، حيث يقطن الأثرياء. والدته راقصة باليه ومعلمة ووالده مهندس إلكترونيات ورجل أعمال يجوب العالم وينتمي سياسياً إلى يمين الوسط. لكن مارتن أراد طريقاً مختلفاً. «قضايا العدالة والظلم وغيرها كانت تؤرقني». درس الرسم في كلية الفنون وانتقل للعيش في بورنهولم (جزيرة دنماركية تقع في بحر البلطيق)، حيث كان يؤسس شركته الخاصة، ثم تزوج ورزق بثلاثة أطفال.

خلال عام 2014، انقلبت حياته رأساً على عقب من جراء أزمة اللاجئين. أراد أن يكون قريباً من الأشخاص الأكثر تهميشاً، فتوجه إلى معسكر اللاجئين السوريين في الجزيرة للاطلاع على قصصهم، والتقط صوراً شخصية لهم، «طبعتها وأهديتهم إياها». إلا أن قصّة الطفلة السورية روشين غيّرت حياته. «كانت مع والدتها وشقيقها في الجزيرة، فيما كان السياسيون في بلدي يريدون فصلها عنهما وإعادتها إلى بلغاريا بحسب اتفاقية دبلن» التي تنظم تعاطي الدول الأوروبية مع اللاجئين. قصة روشين دفعت مارتن للتوجه إلى الدول المجاورة لسورية. «ليس من المعقول أن أصمت على كيفية تصوير أولئك الباحثين عن فرصة للنجاة مع أطفالهم، باعتبارهم مشكلة لأوروبا».

يضيف مارتن: «أردت أن أكون صوت الضحايا الذين دمّر الرئيس السوري بشار الأسد حياتهم وهجّرهم ونكل بهم. بداية، قدمت هؤلاء الضحايا في الفيلم الوثائقي الأول الذي أعددته. ثم توجهت إلى لبنان وتركيا والأردن وقابلت أشخاصاً تعرضوا للتعذيب أو إلى إصابات أدت إلى بتر أطرافهم، وآخرين خسروا أفراداً من عائلاتهم. أردت تغيير الصورة النمطية المتعلقة باللاجئين». لتحقيق ذلك، اطلع على الصور الصحافية التي نقلت أزمة اللاجئين بين عامي 2000 و2010 ، قائلاً: «وكأن هناك عرفاً غير مكتوب يتعلق بالتقاط صور اللاجئين بطريقة معينة، منها صور لأطفال مشعثي الشعر يقفون خلف سياج المعسكرات، أو وجوه فحسب. لكنني أردت تسليط الضوء على قصص هؤلاء بطريقة أخرى، ومن دون التركيز على الخلفية». يضيف أن الصور الموجودة في المعرض شكلت صدمة للأغنياء، كونها تبيّن جراح هؤلاء الذين عُذبوا أو أصيبوا بقصف طائرات الأسد». ويقول إنه يصعب أحياناً التعامل مع اللاجئين انطلاقاً من مبدأ المساواة، وغالباً ما يكون هناك نظرة فوقية وأحكام مسبقة». لذلك، كتب قصة كل شخص صَوّره إلى جانب صورته.

أنشأ مارتن، بعدما كرّس اهتمامه بقضايا اللاجئين، موقعاً إلكترونياً باللغة الإنكليزية، يُسلّط من خلاله الضوء على قضايا مثل «التعذيب وضحايا الحرب وزواج القاصرات»، ساعياً إلى مخاطبة السياسيين الأوروبيين والرأي العام. في هذا الإطار، كان لا بد له من العمل في السياسة، فانتخب عضواً في المجلس البلدي عام 2015. «بعد 20 دقيقة من إعلان النتيجة، دعتني رئيسة البلدية لمناقشة قضية روشين، التي كانت ترفض سابقاً التدخل فيها. وبعد تعليق قرار الترحيل، شعرت بدافع أكبر للمتابعة والحد من انحدار الخطاب السياسي والإعلامي المتعلق باللاجئين في البلاد».

في السياق نفسه، واجه وزيرة الهجرة السابقة إنغا ستويبرغ، التي اتخذت موقفاً متشدداً حيال لاجئي سورية، وخصوصاً حين تحدثت عن إعادة لاجئي دمشق وريفها. رداً على موقفها هذا، سافر إلى إلى دول الجوار السوري، وسلط الضوء على الواقع في دمشق وريفها، وسجون النظام السوري، وخصوصاً سجن المزة من خلال شهادات وصور لأشخاص تعرضوا للتعذيب، ليقدمها أمام الرأي العام وبالتالي دحض ما يقال عن كونها آمنة لعودة اللاجئين.

مؤخّراً، سلّط الضوء، من خلال عدسته، على قضية يصفها بـ «المخزية» بالنسبة إليه كدنماركي، تتعلّق بتزويد شركتين محليتين طائرات الأسد الحربية بالوقود ليقصف بها المدنيين، في إشارة إلى شركة «دان بونكرينغ» والشركة الأم «بونكر هولدينغ»، التي تنقل الوقود للطائرات الحربية من روسيا إلى نظام الأسد، من خلال عمليات تفريغ في البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت الحالي، تحاكم الشركتان لخرق العقوبات الأوروبية على سورية. ما حصل دفعه إلى تصوير السوريين الذين أصيبوا نتيجة قصف الطائرات في الشمال السوري. وخلال الأسبوع الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي، قدم مارتن هدية إلى «دان بونكرينغ» تتضمّن صوراً لأربعة أشخاص من ضحايا القصف، أصيبوا وفقد بعضهم أطرافه.

يقول: «بالنسبة إلي، فإن لعدسة المصور دوراً أساسياً في إبراز القضايا الإنسانية، وقد لمست التغيير الذي قد تحدثه على الصعيدين السياسي والشعبي، وخصوصاً إذا ما ابتعد المصورون عن النمطية. وفي وقت يسعى إلى تغيير سياسة بلاده، يعترف بأنه يصعب على المصور أن يكون حيادياً لدى نقله الواقع. فخلف الصور قصص لم يتمكن أصحابها من روايتها. لذلك، أعتبر نفسي صوتهم وناقل معاناتهم وليس أعدادهم وجنسياتهم فحسب». تبقى الإشارة إلى أن مارتن، وأثناء سعيه إلى عدم ترحيل الفتاة السورية روشين إلى بلغاريا، قابل لاجئة أخرى تدعى روان، كانت تعمل مترجمة لدى الصليب الأحمر الدنماركي، ليقع في حبها ويتزوجان بعدما كان قد انفصل عن زوجته الأولى. اليوم، بات قادراً على لفظ بعض الكلمات العربية، منها «إن شاء الله». يضيف: «عملي لم يغير مسار حياتي المهنية فقط، بل الأسرية أيضاً، بعدما تعرفت إلى حب حياتي».

باختصار

قصّة الطفلة السورية روشين غيّرت حياته، فيما كان السياسيون في بلدي يريدون فصلها عن أهلها وإعادتها إلى بلغاريا بحسب اتفاقية دبلن

■■■

ليس من المعقول أن أصمت على كيفية تصوير أولئك الباحثين عن فرصة للنجاة مع أطفالهم، باعتبارهم مشكلة لأوروبا

■■■

كأن هناك عرفاً غير مكتوب يتعلق بالتقاط صور اللاجئين بطريقة معينة، منها صور لأطفال مشعثي الشعر يقفون خلف سياج المعسكرات

وأخيراً

دييغو الملعون ومارادونا الإله

نجوى بركات

ما زلت أحفظ عنه التعليقات التي كان يُطلقها أبناء وبنات عمومتي المجتمعين بالعشرات أمام الشاشة الصغيرة، لمشاهدة المباريات العالمية لكرة القدم التي فازت فيها الأرجنتين ضد ألمانيا. أراه يركض خلف الكرة كالسهم، ويتحايل ويتلاعب ويصدّ ويتملّص، قبل أن يركل الجسمَ الدائري إلى داخل المرمى، مسجّلا هدفا تثب له الملايينُ من حول العالم، بالغةً سقوفا من البهجة والحماس. أنظرُ إلى الرجل الصغير، وقدميه العجيبتين أشبه بجناحيْن يرفعانه عاليا فوق عشب الملعب، وأكاد لا أفهم ذلك السحر الذي يتحدّث عنه الجميع، عبقريته في اللّعب، وقدرته الاستثنائية على إشعال الملاعب حماسة وتصفيقا. ثم مضت الأيام، وبدأت أسمع عن أحوال الرجل المتقلّبة: فضائح إدمان، صلة بمافيا الكامورا الإيطالية في نابولي حيث راح يلعب، عقوبات بالسجن لحيازة مخدّرات، أطفال غير شرعيين ينبتون هنا وهناك (خمسة اعترف بهم من أربع نساء)، مباراة نُظّمت برعاية زعيم المخدرات الكولومبي إسكوبار داخل سجنه، صلات وثيقة جدا مع الديكتاتور كاسترو، وخلاف مع البابا يوحنا بولس الثاني الذي قال إنه أفقده إيمانه إثر اكتشافه السقف الذهبي الذي يظلل رأس الكنيسة بدل منحه للفقراء، سُمنته المتزايدة، مشكلاته الصحّية، .. إلخ، إلخ.

ثم يتوفى الرجُل عن عمر يناهز الستّين بسكتة قلبية، فينقلب الكوكبُ من جديد، وتضجّ بأخباره وسائلُ الإعلام على أنواعها، رسمية وغير رسمية، محلية وعالمية: مارادونا أهم لاعبٍ على الإطلاق، مزيج من الحيلة والعبقرية، رجل بلغ درجة الألوهة والتقديس، قبل أن ينحدر إلى الحضيض. أتابع كل ما يقع تحت يدي. فعلا الرجل لا يتكرّر، حياته تراجيديا تجعله أحد أبطال المآسي الإغريقية، حيث يدفع البطلُ دائما ثمنا باهظا، غالبا حياته، عقابا على رفضه قدَره. فلم يكن مُقدَّرا لابن الفقراء هذا، بل أفقر الفقراء ممّن يعيشون في أكواخ الصفيح ويغوصون يوميا في القاذورات والوحول، أن يبلغ تلك الذُرى، ويرتفع إلى ذلك المقام. لا يحقّ لمن كان ضيّق الأفق، محدود القدرات، أن يبلغ السماء بقفزةٍ واحدة، أو حتى بقفزات، فلا تعاقبه الآلهة وتجعله يدفع الثمن، أثمانا باهظة.

لقد تعملق (من عملاق) مارادونا، بُنيت له كنيسةٌ باسمه، ووضعه أهالي نابولي والأرجنتين في أحضان العذراء. رفعوا المسيح من مكانه واستبدلوه به، نسبوا إليه مقدرات تحقيق المعجزات، رفعوه على الأكفّ وأفسحوا له في القلوب، وقد عرف معه المنبوذون والمستبعدون والفقراء، من أهل الجنوب وأميركا اللاتينية والشعوب المقهورة، مجدًا لم يسبق أن عرفوه، فبات بالنسبة إليهم المخلّص، روبن هود الفقراء، وبطل مهمّشي الأرض من دون استثناء.

غير أنّ دييغو المسكين بقي في الخلف، صغيرا وهشّا، غير قادرٍ على حمل العالم الذي ارتمى بين يديه، عاجزا عن هضمِ المجد والثروة والحب والكراهية التي أُغدقت عليه. كان حلمه أن ينتقل بأهله إلى بيتٍ من حجر، وأن يمتهن لعب الكرة، لا أكثر. لكنّ تسونامي هائلا تدفّق عليه، بسبب فرادته، فكان أن رُفع مارادونا إلى السماء، وأُغرق دييغو في عمق المأساة. حقًّا، كيف كان لدييغو البسيط، المتواضع، أن يلحق بمارادونا شبه الإله، بل كيف كان له أن يتخلّص من لعنة الأخير، وقد أدخله في دهاليز السلطة والمال والمافيا والرهانات. مارادونا رقم صعب، باهظ، كثير الأصفار، أما دييغو فليس أكثر من صفر، لا شيء، هواء. ما بين اللعنة والتقديس، تمزّق دييغو مارادونا، ولم يجد في طريقه إلا الإدمان يمحو كلّ إحساس بالزمن والمكان. ظنّ دييغو، كما يظنّ معظمُ المدمنين، أن المخدّرات لِحامٌ يُعيد جمعَ ما انشرم في دواخلهم وتنافر وتباعد. إلا أن شروخ دييغو وتصدّعاته تكاثرت وظهرت إلى العلن، فانفضّ عنه المريدون والجماهير، وبقي المُغرضون والمنتفعون ليسحبوا دماءه.

يقال إن اللاعب الأسطورة مات فقيرا، لا يملك أكثر من 75 ألف جنيه في حسابه، وإن خلافات عائلته على ميراثه من الأموال الكثيرة غير المنقولة، بلغ في حياته حدًّا لا يطاق. يقال أيضا إن مارادونا ترك دييغو ينتهي ويموت بعد أن فقد الرغبة بالعيش. أعتقد أن دييغو ومارادونا قد اجتمعا أخيرا، حيث لا يوجد آلهة ولا ملاعين. وداعا أيها «الطفل الذهبي».

> مارادونا رقم صعب، باهظ، كثير الأصفار، أما دييغو فليس أكثر من صفر، لا شيء، هواء

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**